تجربة الجزائر في مجال التعريب

عبد القادر حجار

عضو اللجنة المركزية للحزب والمقرّر العام
للمجلس الأعلى للغة العربية

إني سعيد جداً بوجودي ضمن الوفد الجزائري في هذا الملتقى العظيم الذي أعد خصيصاً لدراسة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني ومدى آثاره على الأمة العربية . ويزيد هذا الملتقى أهمية أنه عقد في هذا الظرف بالذات والأمة العربية تتعرض لهجمة أمبريالية صهيونية ظهرت في العديد من الممارسات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، ويزيده أهمية أيضاً انعقاده بتونس الشقيقة وتبنيها له حكومة وحزباً وشعباً مما يجعلنا واثقين بأن نتائج هذا الملتقى تساوق ما تصبو اليه جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج ، ويزيده أهمية كذلك هذه النخبة من المثقفين اللامعين الذين لهم قيادة الفكر والتوجيه على امتداد الساحة العربية ، ولعل لقاءهم هذا وبهذه النوعية وبهذه العزيمة والتعميم يجعلنا نجدد الثقة في قدرات أمتنا على المواجهة والتصدي لكل الغزوات التي تهدد الكينونة العربية في أي مجال من المجالات .

واسمحوا لي أيها الاخوة أن أقدم اليكم تجربة الجزائر في مواجهة الغزو الثقافي الاستعماري الذي انبسط على أرضنا حقبة من الزمن جاوزت القرن والثلث ، ومن وقت دخول فرنسا إلى أرضنا والشعب الجزائري يقاوم المحتل في ثورات مسلحة متتالية تقوى احياناً وتضعف أحياناً أخرى . وكانت آخرها الثورة المسلحة ٥٤ ـ ١٩٦٢ دفع فيها شعبنا عُشْر سكانه فداء على مذبح الحرية ، غير أن الصراع الثقافي بيننا وبين الاستعمار كان وظل شرساً وعنيداً ومتواصلاً ، وما زلنا حتى الآن نتصدى له بمختلف الأسلحة والوسائل، ونحن واعون لأساليبه المختلفة التي يستعملها لفرض هيمنته على الأفكار والعقول بعد نزوحه بقوة السلاح عن الأراضي والحقول .

ان الجزائر كما تعلمون هي البلد العربي الوحيد الذي ابتلي باستعمار استيطاني حاقد هدف منذ تواجده مقاومة شخصيتنا

وتقاليدنا وثقافتنا العربية الاسلامية ، مستعملاً لذلك كل وسائل التشويه أو الاستئصال . وكم حوّل من مساجد شعار عقيدتنا الى كنائس لرهبانه وثكنات لمرتزقيه أو اسطبلات لخيوله ، ورغم فصل الدين عن الدولة في كل قوانينه فانه جعل الدين الاسلامي تابعاً لادارته الاستعمارية ، وتدخل بقوانين جائرة لمنع اللغة العربية من التعليم والتعلم وجعل مهنتها لا تعطى الا برخص مشروطة منها :

١ ـ اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير .

٢ ـ عدم التعرض لتفسير الآيات القرآنية التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستعباد .

٣ ـ استبعاد دراسة التاريخ العربي والاسلامي وجغرافية العالم العربي والاسلامي .

٤ ـ استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه .

ولا شك أن افراغ التعليم العربي من محتواه الفكري والثقافي وقطع صلاته بغيره من الأقطار العربية والاسلامية هو محاولة هدم ومحق لتاريخنا وأصالتنا وخلخلة خطيرة لمقوماتنا وشخصيتنا . وقد جندت فرنسا لتحقيق هذه العملية بالاضافة إلى رجال القمع والارهاب مختصين وباحثين ومستشرقين ليستعملوا بكل قوة معاول الدمار والخراب وراحت تفرنس الادارة والتعليم والاعلام ، وعرف قانون العقوبات الجنائية مواد زجرية لأول مرة سُنّت لمعلمي لغة الضاد وأصبحت قوانين النفي والتشريد وتشريعات التغريم والتجريم وعقوبات الايقاف والسجن أشياء عادية وطبيعية في معاملة رجال التعليم العربي . ومع كل هذه الوسائل القهرية فان الكتاتيب القرآنية وزوايا الطرقية ومدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي رفعت شعارها : العربية لغتنا ـ الاسلام ديننا ـ الجزائر وطننا ، سارت السياسة التي انتهجتها الحركة الوطنية مع التعليم المستنير جنباً إلى جنب لشحذ الهمم وتربية الناشئة على القواعد الوطنية وتشريبها قيم النضال واعدادها الشعب الجزائري ليوم النهوض الذي خط في الأول ليكون بداية انعتاقنا وعنوان تحررنا . إنه يوم نوفمبر الأغرّ ، فكانت الثورة ، وكانت التضحيات الجسام ، فكان النصر .

الوضع اللغوي غداة الاستقلال

خرجت الجزائر من حرب ضروس مثقلة بتركة ثقيلة من الفقر والمرض والجهل . وكانت الأولويات في سلم الترتيب متزاحمة ومتداخلة تتراوح من توفير لقمة العيش للمواطن وايجاد حقن الدواء للمرضى والمعطوبين وايواء المنكوبين والمشردين وحماية أرامل الحرب وأبناء الشهداء والبحث عن مجالات لتوظيف العاملين والبطالين ، وكان ذلك صعباً وشاقاً للجزائر المستقلّة التي وجدت دواليب الادارة انقاضاً متهالكة وبقايا المصانع أشلاء متطايرة ومئات المدارس أكواماً محرقة عاشت فيها بالاضافة إلى جيش الاحتلال أيادي منظمات الارهاب الأوروبية وغلاة المعمرين بالتخريب والفساد .

واسمحوا لي اذا ذكرت لكم كل ذلك حتى تروا صعوبة الأشكال الذي عرفته الجزائر وحتى تميزوا بأن اعطاء الأولويّة للمشكل اللغوي ومواجهة وضعه المعقد كان في سلم الأولويات المتداخلة ، فكان أول موسم دراسي للجزائر المستقلة بلغ فيه عدد التلاميذ قرابة ٧٠٠,٠٠٠ تلميذ في التعليم العمومي يتقرر فيه ادخال اللغة العربية في كل المدارس العمومية بمعدل سبع ساعات أسبوعياً . وكانت الجزائر المستقلة مدركة لقضية التعريب باعتبارها قضية متصلة ومندمجة ومتفاعلة مع قضايانا الوطنية الأخرى بالسلب أو الايجاب وهي كمواجهة لمخلفات المحتل التي تركها في لساننا فرنسة وفي محيطنا تفرنساً وفي افكارنا جهلاً وفي بطوننا جوعاً وفي أجسادنا عاهات وفي نفوسنا عقداً وأمراضاً . ولا يكون الخلاص حقيقياً الا بتخلصنا من كل موروثات المستعمِر مجتمعة أو منفردة لتفك قيودها حتى ننطلق أحراراً نبني ونشيد .

وقد أدركت الجزائر منذ الوهلة الأولى أن ثقافتها الوطنية لا تكون الا ثورية وقومية وعلمية تستهدف المحافظة على أصالتها المتفتحة بكل مقوماتها من عقيدة وتاريخ وتراث حضاري ولغة ، وهذه الثقافة لا تكون وطنية إلا اذا كانت بلغة الوطن التي هي العنصر الاساسي في كيانها وحجر زاوية في بنائها ، لأنها لغة لا تقتصر وظائفها في التعبير عن بوارق الفكر وخوالج العواطف ، بل يشمل حدّها كل جوانب الحياة الوطنية في العلم أو التعليم في الصناعة أو الزراعة في الادارة أو المحيط ، واللغة العربية في منظور الجزائر رابط قوي ينظم أفراد الشعب ويربط بين أقطار الأمة العربية ويصل أمجاد العرب وحضاراتهم بحاضرهم وهي وعاء صبت فيه تجارب الفكر العربي والاسلامي خلال قرون من الزمن ، وهي المعبر الذي يتوق منه شعبنا تطلعاً لبناء أمة قوية تفرض هيمنتها وسلطانها في العالم المعاصر الذي يعتمد ويفرض سياسة الاحلاف والتكتلات .

لم تطرح قضية التعريب علينا طرح المبدأ والخيار ولكن طرحت علينا من حيث الطرق والمناهج ومن حيث الامكانيات البشرية والمادية ، وهي في وضعنا ليست قضية فنية تقنية تحصر في الطريقة والمنهاج ، بل هي أيضاً قضية سياسية وهدف استراتيجي بالنسبة إلى الثورة ، ومطلب جماهيري تتطلع إليه كل فئات الشعب .

وأكثر المجالات التي واجهنا فيها قضية التعريب بحدة هي مجالات التعليم والاعلام والادارة والاقتصاد . ولعل التعليم هو الميدان الحيوي لعملية التعريب ، وقبل الحديث عن الأشواط التي قطعناها في ميدان التعريب فلا بد من ذكر بعض الصعوبات التي واجهت المدرسة الجزائرية الفتية التي أسست على مبادىء أربعة هي كالآتي :

١ ـ ديمقراطية التعليم : هدفنا من ورائه إلى اعطاء فرص متكافئة لكل الأطفال مهما كانت مكانة الاسرة الاجتماعية لنقضي بذلك على

الانحياز الذي كانت تباشره فرنسا بفتح أبواب المدرسة لأبناء المعمرين والدائرين في فلكها من الجزائريين .

٢ ـ جزأرة الاطارات : إذ تبيّن لنا بأن التعاون الفني سواء مع الدول الصديقة والشقيقة أو مع الدول الغربية لا يمكن أن يحقق لنا كل أهدافنا . ومع اعترافنا بحسن الصنيع للذين أمدونا بالكفاءات والخبرات ، وغالباً ما كانت على حساب شعوبهم ومجتمعاتهم وخطط التنمية لديهم ، فان حاجياتنا تتزايد باستمرار من معلمين ومديرين ومرشدين تربويين ومفتشين وبيداغوجيين ومتخصصين في البرامج والطرق ومؤلفين للكتب المدرسية .

٣ ـ التعريب والمحتوى العلمي والتقني للتعليم : ان الجامعات الجزائرية باعتمادها مبدأ التركيز على العلوم والتقنيات أرادت من ذلك انفتاح الجامعة على المجتمع في كل تفاعلاته وتحولاته والتخلي تدريجياً عن التعليم النظري البحت وخاصة أن عدد الطلاب كان لا يزيد عن الألف غداة الاستقلال . وقد ارتفع هذا الرقم في افتتاح الموسم الجامعي الحالي إلى مائة ألف ويزيد ، وذلك ما يتطلب جيشاً من الاساتذة والمدرسين أكثر من ثلاثة أرباعه يكون متخصصاً في المواد التقنية والعلمية .

فمن هي الدولة العربية التي يتوافر لديها هذا العدد الكافي من الاطارات لسد حاجيات الجزائر بالاضافة إلى حاجياتها ؟

٤ ـ التعريب والمعلم : لنبدأ الحديث الآن عن المعلم ، فان احصاءات وزارة التربية تبين بأن عدد المعلمين بالعربية الذين وظفوا لمجابهة الموسم الدراسي الأول الذي أدخلت فيه حصص العربية بمعدل سبع ساعات في الاسبوع كان ٣٤٥٢ معلماً بالعربية هذا من حيث الكم . أما من حيث الكيف فان الغالبية منهم تلقت تعليمها بطرق عتيقة إما في الكتاتيب القرآنية أو زوايا الطرقية أو في مدارس الاصلاح والحركات الوطنية وقليل منهم من تخرج من الزيتونة أو القرويين والقليل القليل تخرج من الجامعات العربية ، وهذا التباين في منابع المعرفة لم يكن بالميسور التغلب على نتائجه وتحويل هذا العدد إلى اطارات كفؤ تستوعب مستحدثات العلوم التربوية والنفسية وتسيطر على تعقيدات المدرسة العصرية وخاصة العربية ليست وحدها في ميدان التدريس بل لها مزاحمة قوية تريد قهرها عن طريق المقارنة بين رجال هذه وتلك ، رجال تخرجوا من الكتاتيب القرآنية في مواجهة خريجي الجامعات الفرنسية والغربية والصف واحد والتلميذ هو هو ، وحكم التلاميذ على المعلمين هو أقسى حكم يوجه لرجال التعليم ، وآثار فرنسا لم تزل آنذاك قوية في حياتنا الثقافية والمدرسية ، وغريزة اقتداء المغلوبين بالغالبين سنة طبيعية والانعكاسات التي تحدثها هذه المقابلة معادلة دقيقة ، كم خشينا أن تحقق للمستعمر كسباً يُظهر العربية بمظهر العجز والتقصير ويظهر الفرنسية بمظهر القادرة على مواكبة العصر وحدها في ميدان العلم والتقنيات .

وتفادياً لذلك وتفطناً لهذه الأحابيل جندت الجزائر كل طاقاتها ورصدت أموالاً طائلة لذلك وكثفت جهداً كبيراً وعسيراً لتكوين المعربين تكويناً علمياً وعصرياً ، نفسياً وبيداغوجياً لتقضي على جوانب النقص ، سواء في الثقافة العامة أو في فنيّات المهنة ، وكان يمكن التغلب على القضية وفي وقت قصير لو بقي عدد المعلمين هو هو وحصص العربية هي هي ، وعدد التلاميذ لم يرتفع بالملايين .

فعدد المعلمين تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في التعليم الابتدائي وحده في بداية الموسم الدراسي الحالي ، والعربية توسّعت لتشمل أغلب المواد في كل مستويات التعليم وخاصة تعريب المواد التي كان لها مساس بشعورنا كشعب له عراقة في الحضارة والتاريخ ولارتباطها أيضاً بالأرض والماضي والتفكير ، فليس مقبولاً أو معقولاً أن يتلقى تلامذة الاستقلال دروس الجغرافيا التي طالما طبلت أبواق فرنسا ودعايتها ولأكثر من قرن وثلث بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ، وليس مقبولاً أو معقولاً أن يتلقى تلامذة الاستقلال دروس التاريخ بلغة طالما عملت على تشويهه وتحريفه ، وطالما علم اساتذة فرنسا أطفالنا فيما مضى بأننا شعب بدائي ليس له تراث أو حضارة ، وكم صوروا ثوراتنا المتعاقبة في مقاومة الاستعمار بأنها تمرد وعصيان ، فليس من المعقول أن يبقى تاريخنا وهو حلقة الوصول الذهبية بيننا وبين أشقائنا فوق هذه الرقعة العربية متواصلاً تدرسه بلغة اجنبية وذلك ما دفعنا لتعريبه من أول درس في الابتدائي حتى أعلى شهادة في الجامعة .

وليس مقبولاً ولا معقولاً أن تبقى دروس الفلسفة تلقى على أطفالنا وهم في سن المراهقة ، والمراهقة حالة استعداد قصوى لتقبل كل ما هو شاذ وغريب ومخالف للمألوف ويساعد على التمرد والمروق بلغة فرنسية ومن طرف اساتذة فرنسيين أو متفرنسين ، وهم مدارس فكرية وأيديولوجية متباينة ومتناقضة ، فلم يكن أمامنا طريق آخر الا تعريب البلاد تعريباً شاملاً في كل مناحي حياتها .

التعريب والكتـــاب المدرسي

أيها السادة ، لم تتوقف صعوبة التعريب عند المعلم وكفاءاته ونوعيته وعدده بل وجدنا أنفسنا منذ البداية أمام الطرف الثاني في قضية التعريب وهو الكتاب المدرسي . والكتاب المدرسي يشكو ضعفاً في مستواه الثقافي ومحتواه العلمي لدى جميع الشعوب العربية ، والدراسات التي قام المكتب الدائم للتعريب بالرباط بمقارنة مجموعة من الكتب المدرسية العربية بمجموعة أخرى من الكتب المدرسية الغربية تبين بأن المفاهيم التي يتعلمها الطفل العربي عن طريق الكتاب المدرسي لا تتجاوز ٤٠ ٪ مما يتعلمه نظيره بأوروبا ، والجزائر لم يكن لها غداة الاستقلال أي كتاب مدرسي بالعربية لسد حاجياتها حيث انها انهالت على السوق الجزائرية مجموعة من الكتب التجارية الرخيصة من لبنان فكانت من أسوأ العوامل تأثيراً على التعريب .

وعن طريق المقارنة يرى الطفل الجزائري ان كتابه المدرسي باللغة الفرنسية أنيق في طبعه ، جميل في صوره ، وأوضح في أسلوبه ، مفيد بتمارينه ويرى كتابه العربي فيجد فيه ركاكة الأسلوب ، وقبح المناظر ورداءة الطبع ، وعمدت الجزائر إلى القضاء على هذا الخطر الداهم بتأسيس معهد وطني لتأليف الكتب والمذكرات المدرسية ، وبجهد مضن وقاس استطاعت الجزائر أن تغطي كل حاجياتها في مجال الكتاب المدرسي ولمختلف المواد اللغوية والاجتماعية والعلمية .

واذا كنا وفرنا كمية الكتاب اللازمة وأصبح التلميذ الجزائري يجد كتابه المدرسي في أي مادة من مواد المنهاج ، واذا تغلبنا على مشكلة الكم ، فالأعمال الآن جارية على قدم وساق لادخال اصلاحات جذرية على مضمون هذا الكتاب وطريقته من حيث الكيف ليتماشى مع اصلاح التعليم الجديد الذي يعتبر ثورة جذرية في ميدان التعليم ، والذي نطلق عليه اصطلاحاً اسم المدرسة الأساسية لتسع سنوات ، ذات التعليم المتعدد التقنيات .

ولأهمية هذا الموضوع وتعقيداته وصعوبة الاحاطة به وانطلاقاً من التجارب الجزئية التي تمت في هذا القطاع أو ذاك ، شكل حزب جبهة التحرير لجنة وطنية للتعريب باشرافه المباشر وبمشاركة ممثلين عن مختلف الوزارات والشركات والمؤسسات الوطنية والمنظمات الجماهيرية ثم مد هيكلها إلى كل الولايات وكلف هذه اللجنة بدراسة مشكلة التعليم دراسةعلميةوتقييميةلابراز مواطن القوة والضعف واعداد الجو العام نفسيا وسياسياً عن طريق حملات شرح وتوعية والخروج في النهاية بخطة وطنية تعتمد الشمولية في الطرح والتزامن في الانطلاق والتدرج في التطبيق والتكامل بين القطاعات . وبعد سنين من الدراسة والتوعية توجت اللجنة أعمالها بعقد ندوة وطنية للتعريب بتاريخ ١٤ ماي ١٩٧٥ باشراف رئيس الدولة شخصياً وبمشاركة ١٢٠٠ مندوب عن كل القطاعات الادارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في البلاد .

وخرجت الندوة بخطة وطنية حددت فيها المراحل وحوصرت طرائق العمل وحددت مجالات التعريب في التعليم والتكوين والادارة والاقتصاد والاعلام والمحيط .

وبعد التغيير الذي عرفه الحزب من هياكله الدائمة بعد المؤتمر الرابع ، انتخاب قيادة سياسية جديدة تمثلت في اللجنة المركزية أدمجت مهمة التعريب في اطار لجنة التربية والثقافة والتكوين ، ثم قررت اللجنة المركزية في دورتها الثالثة انشاء مجلس أعلى للغة العربية برئاسة رئيس الجمهورية شخصياً وعضوية العديد من الوزراء ومسؤولي الحزب ، وأمناء المنظمات الجماهيرية اسندت له مهمة المتابعة والتنسيق والتقييم ومراقبة الانجاز .

وأما من حيث الطرح السياسي فان نصوص الثورة الجزائرية أكدت جميعها انتماء الشعب الجزائري للأمة العربية وأقرت بأن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للبلاد ، انطلاقاً من بيان أول نوفمبر ومروراً بمواثيق الصومال وطرابلس والجزائر والميثاق الوطني الأخير .

وأما في مجال الانجازات التي تمت في ميدان التعريب بالفعل ، فهي كثيرة ومتنوعة ، وأقول بكل تواضع جبارة ، إذا قيست بجسامة المشكل اللغوي الذي ورثناه غداة الاستقلال ومزاحمته بأولويات مستعجلة في المجالات الأخرى تتميز كلها بطابع الالحاح والفترة الزمنية القصيرة من عمر الاستقلال . وأحاول حصر الخطوط العريضة كالآتي :

التعليـــم :

عربت السنوات الست الابتدائية تعريباً كاملاً في مختلف المواد وبقيت الفرنسية ابتداء من السنة الرابعة تدرس كلغة اجنبية لا تتعدى قواعد النحو والصرف والمحادثة والاملاء من حصة اسبوعية بمعدل ست ساعات وكان بقاؤها ليس اختياراً سياسياً نهائياً بل لضرورة عملية وذلك من حالة نقص العدد الكافي من المعلمين باللغة العربية للمواد العلمية في المرحلتين الاعدادية والثانوية . في هذه الحالة يمكن الاستعانة بتدريس هذه المواد العلمية باللغة الفرنسية حتى لا يبقى جزء من التلاميذ متوقفاً عن مواصلة الدراسة .

كما عرب الثلث من كل الأقسام من المرحلة الاعدادية تعريباً كاملاً بجميع المواد ، وأما الثلثان الباقيان فتدرس لهما مواد التاريخ والجغرافية والتربية والآداب باللغة العربية بمعدل يتجاوز العشر ساعات ، ومعنى ذلك ان الفرنسية في هذين الثلثين مقصورة على المواد العلمية ، لا غير .

وأما المرحلة الثانوية فعربت الشعبة الأدبية تعريباً كاملاً وعرّب بجانبها ثلث الاقسام في الشعبتين الرياضية والعلمية ويتلقى الثلثان الباقيان دروس الجغرافية والتاريخ والفلسفة باللغة العربية لكل طلاب المرحلة وتبقى الفرنسية مقصورة أيضاً على المواد العلمية .

وأما التعليم العالي فلم نجد غداة الاستقلال إلا فرعاً هزيلاً يسمى قسم الآداب العربي تدرس أغلب مواده باللغة الفرنسية ومن وجهة نظر استشراقية فعمدت الجزائر الى فتح فروع باللغةالعربية بجانب فروع الفرنسية في مختلف مواد العلوم الاجتماعية وبقيت الفروع العربية تنمو شيئاً فشيئاً ويتكاثر طلابها وأخيراً قررت اللجنة المركزية في دورتها الثانية قراراً سياسياً تاريخياً في مغزاه وفحواه حيث أوقفت التدريس باللغة الفرنسية بصفة نهائية في فروع الفلسفة والتاريخ والحقوق والاقتصاد والتجارة والعلوم السياسية والعلوم الصحفية والجغرافية وعلوم النفس والاجتماع والتربية وقصر تدريسها على اللغة العربية وحدها والتطبيق الفعال لهذا القرار ابتداء من الموسم الجامعي ٨٠ و ٨١ .

كما شمل التعريب دور المعلمين التابعة لوزارة التربية حيث

أصبحت تكون مختلف التخصصات باللغة العربية وحدها ، واتسع هذا التعريب ليشمل مراكز التكوين المهني والاداري والمدرسة الوطنية للادارة .

وأما في مجال الاعلام فلم تكن لنا الا جريدة « المجاهد » لسان المقاومة المسلحة تصدر بالعربية ، وغداة الاستقلال تأسست جريدة « الشعب » اليومية وثلاث جرائد ناطقة باللغة الفرنسية ، ثم اتخذ قرار بتعريبها وتأسيس جريدة « الجمهورية » وجريدة « النصر » وبذلك أصبحت اليوميات العربية ثلاثاً والفرنسية واحدة ، كما انشئت مجلات « الأصالة » و « الثقافة » و « الجيش » و « آمال » و « ألوان » وكلها صادرة باللغة العربية وكذلك مجلات المنظمات الجماهيرية : « الوحدة » لسان الشبيبة الجزائرية و « الفلاح » لسان اتحاد الفلاحين و « الثورة » و « العمل » لسان اتحاد العمال و « أول نوفمبر » لسان المجاهدين وكلها صادرة باللغة العربية أيضاً .

وأما التلفزة فكانت برامجها وأفلامها وتحقيقاتها بالفرنسية ، واتخذت خطوات جبارة في مجال تعريبها ، فأصبحت كل النشرات الاساسية والتحقيقات والندوات واللقاءات الرسمية ونقل المباريات بما فيها العالمية لا تهتم الا باللغة العربية وحدها . ولم يعترضنا الا مشكل الأفلام والمسلسلات . فالانتاج الوطني والعربي على ضعفه لا يستطيع تغطية كل ساعات البث التلفيزيوني والذي يتجاوز يومياً أكثر من سبع ساعات وخاصة الأفلام المصرية بالذات التي هي أوسع انتاج عربي ، اعترضتها مشكلة اللهجة المصرية واحياناً محتواها الايديولوجي وخاصة في عهد الردة الساداتية وشعور الجزائريين حولها ونفورهم من انتاج الردةفي أي ثوب يقدم حتى ولو كان باسم التعريب ، وقمنا بتجربة دبلجة الأفلام الأجنبية المختارة فكان ثمن الدبلجه باهظاً حيث تضاعف في بعض الحالات خمس مرات عن الثمن الرسمي الذي اشتري به الفيلم الأجنبي ، واتصلنا بشركات اجنبية طالبين منها القيام بالدبلجة رأساً فاشترطت علينا ضمان السوق العربية لترويج انتاجها المدبلج ، وعندما اتصلنا بجهات عربية مسؤولة رفضت الاقتراح بحجة أن طلابها وتلامذتها ضعاف في اللغات الأجنبية والأفلام والمسلسلات بلغاتها الأصلية تساعد على تقويتهم في هذا المجال .

وقامت الجزائر بتعريب جهاز القضاء تعريباً كاملاً حيث لا يعقل أن يبقى هذا الجهاز الذي عرفه شعبنا خلال عهد الاحتلال جهاز ظلم وجور كم أصدر من احكام جائرة بلغة فرنسية وبقوانين فرنسية لحماية مصالح فرنسية ، وكم كان مؤلماً ان يقف الفلاح الجزائري بين قاضٍ ومحام يتحاوران حول حياته أو مماته بلغة لا يفهمها . فمن أبسط قواعد الكرامة أن يكون هذا الجهاز من أول الأجهزة التي شملها التعريب وشملها أيضاً تغيير محتوى القوانين .

وكان الاستعمار قد ترك لنا محيطاً عاماً مفرنساً ، فأسماء شوارعنا وأحيائنا ومدننا ومدارسنا كلها ناطقة بأسماء فرنسية غالباً ما تكون أسماء الجنرالات أو مسؤولين فرنسيين لهم مآثر سوداء في تاريخهم في معاملة شعبنا . لذا قررت اللجنة الوطنية للتعريب في ندوتها التعريب الشامل لمظاهر البيئة الجزائرية وابدال كل الأسماء الغريبة والغريبة على مجتمعنا بأسماء ومدلولات مستمدة من الحضارة العربية الاسلامية وكانت عملية تعريب المحيط بمثابة المنبه الحقيقي الى خطورة مخلفات الاستعمار ومخططاته في مجالات الفكر والثقافة ، فكانت المواجهة عنيفة مع رموز الفرنسة في الجزائر وضجّت الصحافة الفرنسية ضجة كبيرة وصفت فيها المشرفين على العملية بأسوأ النعوت والأوصاف ، وارتبكت الحكومة الفرنسية كأن القيامة قامت من حولها وتدخلت أحياناً تحت غطاء النصح والارشاد . وأحياناً بالوعيد والتهديد . وفي ظرف قصير تغير وجه الجزائر من الحدود إلى الحدود ولبست حلتها العربية الزاهية المشرقة وتغير أكثر من ثلاثة ملايين اسم في شوارعنا واحيائنا ومدننا ، وكان يقصد زيادة على ذلك أن تكون شوارعنا ذاكرة خالدة لأجيالنا وهي تحمل أسماء شهدائنا واعلامنا وأبطالنا عبر التاريخ .

وأما مخططات التعريب من المجالات الباقية وخاصة في مجال الكليات العلمية والادارة والشركات الوطنية فان اللجنة المركزية قد اتخذت قرارات هامة في دورتها الثالثة وكلفت المجلس الأعلى باعداد الخطة المرحلية ضمن مخططات التنمية حتى يضمن لها التنظيم والتجهيز والتمويل اللازم وليس هناك مجال لذكر تفاصيلها . .

هكذا يتضح لكم من خلال هذا العرض الموجز خطورة المشكلة التي تعاني منها الجزائر وصعوبة مواجهتها لأنها ليست مشكلة لغوية فحسب ، بل هي مشكلة سياسية وثقافية وايديولوجية تتقاطع عندها ومن خلالها كل التيارات التي أفرزتها الحرب ووسعت من مجالاتها مفرزات التنمية الاقتصادية التي سلكتها الجزائر بعد الاستقلال . وان جنود معركة التعريب في الجزائر لا يجدون سنداً قوياً يستندون اليه عند الحاجة أو الجدال من طرف أمة عربية جعلها وضعها الممزق ونوعية نظمها وتفتت قواها وبعثرة طاقاتها حجة عليهم وليست لهم .

ولعل هذه المعركة التي أشرت اليها تجسم بصدق شراسة الهجمة الاستعمارية الغاشمة التي حاولت بكل ما تملك ضرب مقوماتها وخاصة في مجال اللسان والايمان ، فرغم خروج فرنسا جيوشاً ومستوطنين ورغم افتكاكنا السيادة الوطنية بقوة السلاح فان السلاح الثقافي واللغوي ما زال مستمراً وعنيفاً بيننا وبين الاستعمار حتى الآن . وبتفاؤل أقول إن المعركة تؤكد نصرنا فيها تباشير تلوح في الأفق وان جنودها أصبحوا آلافاً مؤلفة من حَمَلة الشهادات الجامعية العليا فوعيهم بجسامة المعركة أقوى بكثير مما كان متوفراً ومما كان عليه اخوانهم الذين سبقوهم لرفع راية الجهاد ، وان حزب جبهة التحرير الذي قاد الجزائر في حرب التحرير وانتصر ثم قادها في معركة التعمير فانتصر هو الذي يقودها بالعزيمة نفسها في معركة التفكير فايماننا به أكبر بأنه ينتصر .

عبد القادر حجار